

النسوية والإسلام:
الجندر بوصفه مدخلًا عقديًّا للإلحاد واللادينية

أ. الحارث عبد الله بابكر
تويتر: @west_host

مـن الملاحظـات التـي يصعـب تجاهلهـا خـلال الفتـرة السـابقة وجـود مـدٍّ نسـويّ وسـط السـياق الإسـلامي، ومـن الصعـب أيضًـا عـدم ملاحظـة وجـود علاقـة وثيقـة بينـه وبيـن إلحـاد العديـد مـن الفتيـات اللواتـي تربيـن وسـط أسـر مسـلمة ثـم تعرضـن لـه فـكان عامـلًا مـن عوامـل رفضهـن للديـن ولجوئهـنّ للإلحـاد. هـذه الظاهـرة لا تنحصـر فقـط فـي الأوسـاط الإسـلامية، ولكنهـا لوحِظَـت أيضًـا فـي السـياق المسـيحيّ واليهـوديّ. فقـد ورد فـي العديـد مـن دراسـات التديـن ملاحظـات بهـذا الصـدد، مثـلًا فـي بريطانيـا: «النسـاء اللواتـي يصنِّفنَ أنفسـهنّ علـى أنهـنّ نسـويّات مـن المرجـح أن يَكُـنّ أقـلَّ تديُّنًـا مقارنَـةً بعمـومِ النسـاء»،(١) وأنّ «سـبع مـن كل عشـر نسـاء -تقريبًـا فـي عمـوم السـكان؛ ينتميـنَ إلـى ديانـةٍ مُحـدّدة كالبوذيـة والمسـيحية والإسـلام، ولكـن بيـن صفـوف النسـويَّات، لـم تبلـغ هـذه النسـبة سـوى امـرأةٍ واحـدةٍ مـن كل عشـر نسـاء كان لهـا انتمـاء مـن هـذا القبيـل».(٢)

هـذه الملاحظـات -وغيرهـا- تطـرح أسـئلة مهمـة بخصـوص العلاقـة بيـن الإسـلام (والأديـان عمومًـا) والنسـوية، خاصـةً أنّ مـن الادعـاءات المشـهورة بخصـوص هـذا الصـدد أن الفكـر النسـويّ يراعـي «الخصوصيـات الثقافيـة» لـكل مجتمـع، وأنّ هنالـك نسـوية إسـلامية قائمـة تتبنّـى كلًّا مـن الديـن والنسـوية. يحـاول هـذا المقـال بحـث جانـب أساسـيّ مـن هـذه العلاقـة عبـر تنـاول مشـروع الجنـدر -والـذي أصبـح يشـكل العمـود الرئيسـيّ للمشـاريع البحثيـة النسـوية- والمكانـة التـي يشـغلها فـي العقيـدة النسـوية، وكيـف تـم تطبيقـه فـي التعامـل مـع الديـن ومـا هـي النتائـج التـي وصـل إليهـا هـذا المشـروع وعلاقتهـا بالإلحـاد واللادينيـة، ويختـم بمـرور خفيـف علـى الحالـة شـديدة الإشـكالية لـ«النسـوية الإسـلامية» التـي -كمـا يحاجـج المقـال- تضطـر إلـى التعامـل مـع كلٍ مـن مفهومـيّ الديـن والجنـدر بانتقائيـة ومخاتلـة لإخفـاء التناقـض الـذي يقـع فـي قلـب هـذا المشـروع.

حول مشروع الجندر:

«إن الفـرد لا يولـد امـرأة، وإنمـا يصبـح امـرأة».(٣) مثّـلَ هـذا التقريـر للفيلسـوفة الفرنسـية الشـهيرة سـيمون دي بوفـوار شـعارًا مهمًّـا فـي مسـيرة الموجـة الثانيـة مـن الحركـة النسـوية، فهـو كان التدشـين الأول للفكـرة التـي سـتصبح خطـة العمـل الرئيسـة للبحـث الأكاديمـي النسـويّ، وكمـا تؤكـد وينـدي سـيالي هاريسـون Wendy Cealey Harrison فـإن: «التفريـق بيـن الجنس/الجنـدر كان أساسـيًّا للازدهـار الكامـل للموجـة الثانيـة مـن النسـوية... وقـد تبـع ذلـك مـا يزيـد علـى الثلاثيـن سـنة مـن البحـث النسـويّ المثمـر بشـكل هائـل، والـذي أثبـت أن مـا كشـفه مصطلـح «الجنـدر» كان مجـالًا واسـعًا وخصبًـا فكريًّـا».(٤)

تـدور الفكـرة الرئيسـية لمفهـوم الجنـدر حـول أنّ «صفاتنـا النفسـية والاجتماعيـة وأدوارنـا لا تولـد معنـا بـل نكتسـبها مـن خـلال التربيـة والثقافـة المحيطـة»،(٥) وأنّ «الاختـلاف الطبيعـي الوحيـد بيـن الذكـر والأنثـى هـو فـي تلـك الوظيفـة [الإنجـاب]، أمـا الاختلافـات الأخـرى مـن حيـث الطبـاع أو الأدوار الاجتماعيـة التـي يقـوم بهـا كل مـن الذكـر والأنثـى، فهـي ليسـت مرتبطـة بالاختلافـات البيولوجيـة أو الفيزيولوجيـة الموجـودة فـي جسـد كل منهمـا، بـل بسـبب عوامـل اجتماعيـة صنعهـا البشـر أنفسـهم».(٦)

(1) Aune, Kristin. “Much Less Religious, A Little More Spiritual.” Feminist Review, vol. 97, no. 1, Mar. 2011, pp. 32-55.

(2) Aune, Kristin. “Why Feminists Are Less Religious.” The Guardian, Guardian News and Media, 29 Mar. 2011, www.theguardian.com/commentisfree/belief/2011/mar/29/why-feminists-less-religious-survey. Accessed 23 September 2021.

(3) “The Second Sex”, Simone de Beauvoir, p-301, (New York: Vintage Books) 1973

(4) “The Shadow and the Substance The Sex/Gender Debate”, Wendy Cealey Harrison, p35, in “Handbook of Gender and Women’s studies”, edited by: Kathy Davis, Mary Evans, and Judith Lorber.

(٥) «النسوية: مفاهيم وقضايا»، مية الرحبي، ص76.

(٦) «النسوية: مفاهيم وقضايا»، مية الرحبي، ص79.

فمفهوم الجندر في أساسه النظري عملية فصل بين الأدوار الاجتماعية والطبيعة البيولوجية، أي «أن دي بوفوار تفصل ما بين الجنس كبيولوجيا وبين الجنوسة [الجندر] باعتبارها تشكلًا اجتماعيًّا ثقافيًّا».(٧) ثم هو ينظر لهذه الأدوار الاجتماعية باعتبارها وسائل يستعملها النظام الذكوري لترسيخ هيمنة الرجال على النساء، عبر ربط معنى الأنوثة بالأمومة والحياء والرقة مثلًا وجعلها نتيجة لذلك خاضعة لسلطة المجتمع والأسرة، بينما في الحقيقة - بالنسبة للمتبنين لمفهوم الجندر- لا توجد علاقة بين هذه الصفات النفسية والاجتماعية وجنس الأنوثة.

ومفهوم الجندر بهذا التوصيف هو نظرية اجتماعية، فهو «يشكّل عند مستخدميه معيار التفسير لفك شفرة الحياة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية، من خلال فكرة رئيسة: الاختلافات بين النساء والرجال ليست مرتبطة بتغاير طبيعي، ولكنها نتاج بنية ثقافية، والتي نُظِّمَت برمّتها لترسيخ الهيمنة على جنسٍ من طرف الآخر... فمفهوم النوع [الاجتماعي، أو الجندر] يغطي كذلك رؤية معينة إلى العالم ونظرية. المفهوم نفسه لا ينفصل عن الفرضية التي يرتكز عليها، التي تدّعي السّمة الثقافية والتي تنبني على الاختلاف بين الرجل والمرأة».(٨)

وبما أنه يمثل مفهومًا ضمن نظرية اجتماعية فهو بصورة حتمية متحيز وذو اتصال مع أرضية ثقافية وفلسفية ينطلق منها ويفترضها، وفي ذلك يقول الدكتور خالد بن عبد العزيز السيف: «إن أي مصطلح لا يمكن أن يُولَد في فراغ، ولذلك فهو ينتمي إلى المنظومة الفكرية والفلسفية التي وُلِد فيها، ومرجعيته هو الحقل والسياق الثقافي والمعرفي الذي عبّر عنه إبّان تشكُّله، ويمكن أن يعبر عن السياق الذي تشكل فيه بأنه هو هوية المصطلح، ولذلك فكل بحث في دلالة المصطلح دون اعتبار لهوية المصطلح يعتبر بحثًا غير مكتمل الجوانب، فكثير من المصطلحات ليست مفاهيم عالمية كونية متعالية عن الزمان والمكان، وليست متجردة عن الخصوصية التاريخية والحضارية، بل تتحيز هذه المصطلحات إلى هويات راسخة سواء كانت فلسفية أو دينية...».(٩)

لكن وكما تذكر الأستاذة ملاك الجهني: «استخدام المفاهيم التحليلية الغربية بطريقة انتقائية، بحيث ننتقي منها ما يناسبنا من الدلالات وننفي أخرى لا يفصم المفهوم عن جذوره ولا يفرغه من حمولته الثقافية بحال».(١٠) لذلك التعامل مع المضامين التي يقدمها مشروع الجندر كحقائق نهائية يتجاهل حقيقة كونها مجرد نظرية اجتماعية، وكما يذكر فرانسوا-كزافييه بيلامي: «المدافعون عن هذا المفهوم الذين يستخدمونه بشكل واسع اليوم ... يرفضون بشدة أن تكون «نظرية» ما مخفية وراء هذا المفهوم. ولكن هذا الرفض ليس له ببساطة أي معنى ... تفسير التاريخ والأدب والحياة الاجتماعية كأماكن للهيمنة الذكورية من خلال إقامة القوالب النمطية حول الجنسين، يمكن أن يكون فرضية للاشتغال؛ ولكن الأمر يتعلق كثيرًا بنظرية خاصة، وبهذا الصدد فهي لا تملك دليلًا مُؤَكَّدًا لا جدال فيه.»(١١)

ومن الجوانب المهم الوعي بها أيضًا -إضافة إلى أن مفهوم الجندر ينطلق من أرضية فلسفية ونظرية اجتماعية محددة-، فإن مفهوم الجندر أيضًا لا ينفصل عند أكثر المتبنين له عن الموقف الأخلاقي المصاحب له، فقد تم الربط بين عملية وضع الأدوار الاجتماعية للرجال والنساء بفكرة

---

(٧) «الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي»، خديجة العزيزي، ص ٣١.

(٨) «نظرية النوع (الجندر) ليست سوى فرضية أيديولوجية»، فرانسوا-كزافييه بيلامي، ترجمة: زيد أولادزيان، تحرير: سهام سايح. موقع أثارة من علم.

https://atharah.com/the-theory-of-gender-is-ideological

(٩) إشكالية المصطلح النسوي، دراسة دلالية: مصطلح «المساواة»..«الحجاب»..«التمكين».. أنموذجًا»، د. خالد بن عبد العزيز السيف، ص ٤١، مركز تكوين للدراسات والنشر.

(١٠) «القراءة الجندرية للقرآن ومآلات التسول الثقافي»، ملاك الجهني، موقع مركز نماء للبحوث والدراسات.

https://nama-center.com/Articles/Details/30521

(١١) نظرية النوع (الجندر) ليست سوى فرضية أيديولوجية»، فرانسوا-كزافييه بيلامي، ترجمة: زيد أولادزيان، تحرير: سهام سايح. موقع أثارة من علم.

https://atharah.com/the-theory-of-gender-is-ideological

هيمنة الرجال على النساء، باعتبار أن الحديث عن وجود تغاير «طبيعي» بين الرجل والمرأة هو ادعاء تم استعماله لمدة طويلة لقمعها والهيمنة عليها وجعل ذلك أمرًا طبيعيًّا، وبذلك سيُستعمَل الجندر لتفكيك هذه «الطبيعية» ولبيان أنها اجتماعية، أو على حد وصف كاملا بهاسين: «طُرِح الاختلاف بين «الجنس» والنوع الاجتماعي «الجندر» لمعالجة التوجهات العامة التي تُرجِع خضوع المرأة إلى تركيبتها الجسدية. إذ ساد طويلًا الاعتقاد بأن التباين بين خصائص دور المرأة والرجل ومكانة كل منهما في المجتمع تُحَدَّد وفقًا للتصنيف البيولوجي للجنس المعين، لذلك اعتُبِرت هذه الخصائص طبيعية وغير قابلة للتغيير. بهذا المفهوم: ظل التكوين الجسدي للمرأة، ولا يزال، سببًا مباشرًا لخضوعها في المجتمع. وفي حالة قبول هذا كوضع طبيعي من البديهي ألا تثار قضية عدم المساواة وعدم العدل في المجتمع».(١٢) ولذلك يتم النظر إلى الاختلافات في بعض التشريعات الاجتماعية بين الرجال والنساء وردّها إلى اعتبارات تتعلق باختلاف طبائع الرجال والنساء على أنها وسيلة للحفاظ على الهيمنة الذكورية من الرجال على النساء.(١٣)

التشريع الإسلامي والجندر:

إذا تأمّلنا فلسفة التشريع في الدين الإسلامي سنجدها تقوم على مفهوم العدل كمبدأ أساس فيها، إذ يقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله: {لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ..}(١٤) يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -قدّس الله سره-: «العدل واجب لكل أحد على كل أحد في جميع الأحوال، والظلم لا يباح شيء منه بحال»(١٥)

ولكن العدل في التشريع الإسلامي يفترق في جوانب كثيرة عن العدل في مفهومه الليبراليّ الغربي الذي يقوم على المساواة المطلقة، فالشريعة تراعي اختلاف الطبائع فتساوي في حالات وتتغاير التشريعات في حالات. كما أنّ القرآن الكريم أكّد في حالة تشريعات الرجل والمرأة أنّ بينهما تغايرًا طبيعيًّا يوجب اختلاف التشريعات بينهما، مع تساويهما في أصل الخلقة وفي المسؤولية والتكليف واستحقاق الثواب أو العقاب، وفي ذلك يقول الدكتور سلطان العميري: «ومن كمال الشريعة الإسلامية وعمق تفاعلها مع الحياة الإنسانية أنها لم تبنِ العلاقة بين الرجل والمرأة على المساواة، وإنما جعلت العلاقة بينهما قائمة على معنى العدل، الذي هو إعطاء كل ذي حق حقه وما يستحقه ويتناسب مع طبعه وخواصه، وهذا الإعطاء قد يكون بالمساواة وقد يكون بالتفاضل بين الجنسين، فالمعنى الذي تعتبره شريعة الإسلام وتعتمده في بناء أحكامها هو الوصول إلى الحق المناسب لطبيعة كل من الرجل والمرأة، ولأجل هذا اختلفت أحكامها وتشريعاتها المتعلقة بالرجل والمرأة، فأوجبت على الرجل أشياء لم توجبها على المرأة، ومنعته من أشياء لا تمنع المرأة منها، وكذلك أوجبت على المرأة أشياء لا توجبها على الرجل، وتمنع المرأة من أمور لا تمنع الرجل منها ... فالعلاقة بينهما في الإسلام تتفرع إلى ثلاثة أحوال أساسية: تارة تقدم المرأة على الرجل وتُفَضَّل عليه، وتارة يقدم الرجل على المرأة ويفضل عليها، وتارة لا يفضل أحدهما على الآخر».(١٦) وقد ورد في سبب نزول قوله تعالى: {وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ..} ما يتضمن التأكيد على وجود فوارق طبيعية بين الرجال والنساء، ويقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد -رحمه الله-: «وهذه الأحكام التي اختصّ الله -سبحانه- بِهَا كل واحد من الرجال والنساء تفيد أمورًا منها ... الإيمان والتسليم بالفوارق بين الرجال والنساء: الحسية والمعنوية والشرعية، وليرضَ كلٌّ بما كتب الله له قدرًا وشرعًا، وأنّ هذه الفوارق هي عين العدل، وفيها انتظام حياة المجتمع الإنساني.»(١٧)

(١٢) «فهم النوع الاجتماعي [الجندر]»، كاملا بهاسين، ص٧، ترجمة ونشر: مركز سالمة لمصادر ودراسات المرأة، ط٢.

(١٣) تجدر الإشارة أنّ مفهوم الجندر قد مر بتحولات وتغيرات منذ تلك الفترة، تتوجت بإخراج جوديث بتلر لكتابها «ورطة الجندر "والتي كانت أساسًا لتجاوز حتى ثنائية ذكر\أنثى وتجاوز الغيرية الجنسية Heterosexuality بوصف كل هذا كخيارات يتم فرضها في المجتمع على الأفراد وتتشكل عبر الأفعال الأدائية، ففي الكتاب تجعل جوديث بتلر ليس الجندر وحده بناءً اجتماعيًّا، ولكن الجنس نفسه.

(١٤) سورة الحديد، الآية ٢٥.

(١٥) «مجموع الفتاوى، المجلد الثلاثون» أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ص٣٣٩.

(١٦) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، د. سلطان بن عبد الرحمن العميري، المجلد الثاني، ص٥٢٣.

(١٧) حراسة الفضيلة، بكر بن عبد الله أبو زيد، ص٢٠، دار العاصمة للنشر والتوزيع.

مـن الواضـح هنـا وجـود اختـلافٍ جـذريّ بيـن مـا أوحـى بـه الله عـزّ وجـلّ بوصفـه طبيعـة للرجـل والمـرأة، وبيـن المنظـور الـذي يتبنـاه مفهـوم الجنـدر لطبيعتهمـا، كمـا أنّ الشـرع يرتّـب علـى هـذا الاختـلاف تشـريعات فـي الحيـاة الاجتماعيـة جـاء مفهـوم الجنـدر بالأصـل بغـرض تفكيكهـا بوصفهـا تشـريعات ذكوريـة وتعـزز هيمنـة الرجـال علـى النسـاء. [غنـيٌّ عـن القـول الإشـارة لأننـا نتحـدث عمـا هـو فعـلًا مـن شـرع الله سـبحانه وتعالـى، أمـا الواقـع فقـد يختلـط فيـه مـا هـو مـن شـرع الله مـع مـا هـو عـادات وتقاليـد وتشـريعات موروثـة قـد تخالـف أمـر الله بالعـدل، كالحرمـان مـن التعليـم أو مـن الصحـة أو مـن الميـراث، أو غيرهـا ممـا أبـاح أو أمـر الله عـز وجـل بـه مـن الأعمـال والنشـاطات].

وعمـوم الأنظمـة الاجتماعيـة البشـرية عبـر التاريـخ انتظمـت علـى أسـاس مـن تقسـيم الأدوار الاجتماعيـة بيـن الرجـل والمـرأة، وعمـوم الأديـان تاريخيًّـا تمثّلَـت هـذه الحقيقـة، وتؤكـد ذلـك باميـلا ديكـي يونـغ بقولهـا: «فـي العديـد -وربمـا أغلـب- الأديـان نجـد أن تراثهـا نظـر إلـى الجنـس والجنـدر باعتبارهمـا مترادفيـن».(١٨) وقـد اضطلعـت النسـويات عبـر مفهـوم الجنـدر بإعـادة قـراءة التاريـخ وتفكيكـه عبـر مفهـوم الجنـدر وفلسـفته الضمنيـة بغـرض نقـد وتوجيـه هـذه التقسـيمات والتـي نظـرنَ إليهـا بوصفهـا «ذكوريـة» و «متحيـزة ضـد المـرأة».

فكيـف إذًا نظـرت النسـويات المتبنيـات لمفهـوم الجنـدر للإسـلام، ومـاذا كانـت نتيجـة إدراك هـذا الاختـلاف؟

كيـف تمـت دراسـة الأديـان عبـر مفهـوم الجنـدر؟

إذا تأملنـا فـي الفتـرة التـي نشـأ فيهـا العمـل الفكـري والفلسـفي النسـوي قـد كان خـلال النصـف الثانـي مـن القـرن العشـرين، أي بعـد الانتشـار الواسـع للعلمانيـة وبعـد أن أصبحـت الأسـئلة التـي كانـت مهيمنـة قبـل تلـك الفتـرة فـي السـياق الأوروبـي -حـول وجـود الله والديـن ومرجعيـة الكتـاب المقـدَّس- مُتجَـاوَزَة، ولذلـك تلتقـط كريسـتين أوفـرول Christine Overall ملاحظـة لهـا دلالـة فـي هـذا السـياق بقولهـا: «عندمـا تكتـب الفيلسـوفات واللاهوتيـات النسـويات عـن الديـن، فإنهـنّ فـي الغالـب لسـنّ مهتمّـات بالسـؤال



الأنطولوجي/الوجـودي حـول مـا إذا كان الإلـه أو الآلهـة، أو الإلهـة أو الإلهـات موجـودون [بالفعـل]، وحـول مـا هـي الحجـج التـي تدعـم وجودهـم. وفـي هـذا الصـدد لـم تكـن الفيلسـوفات النسـويات مهتمات بالإثبـات العقلانـي لعـدم وجـود الإلـه، أو الآلهـة، أو الإلهـة أو الإلهـات، أو فـي دعـم الإلحـاد علـى أرضيـة عقلانيّـة».(١٩) وإنمـا كان التركيـز النسـويّ فـي دراسـة الأديـان عبـر الجنـدر منصبًّـا علـى الواقـع الثقافـي والرمـزي والـذي يقـوم بتوزيـع الأدوار الاجتماعيـة علـى الجنسـين، ومظاهـر عـدم المسـاواة فيـه.

إذا جمعنـا الملاحظـات التـي وصلنـا إليهـا أعـلاه، أنّ مشـروع الجنـدر ينطـوي علـى نظريـة اجتماعيـة ورؤيـة للكـون ذات موقـف أخلاقـي رافـض لتوزيـع الأدوار بيـن الجنسـين عبـر الاعتقـاد بوجـود اختلافـات طبيعيـة

(18) "Religion", Pamela Dickey Young, p509, in: "A Companion to Gender Studies", edited by: Philomena Essed, David Theo Goldberg, and Audrey Kobayashi.

(19) "Feminism and Athiesm", Christine Overall, p233, in "The Cambridge Companion to Athiesm", edited by: Michael Martin.

بيـن الجنسـين، مـع ملاحظـة أنّ الإسـلام -وأكثـر الأديـان- تقـوم فلسـفة التشـريع فيهـا علـى أسـاس وجـود اختـلاف طبيعـي بيـن الجنسـين، يترتـب عليـه توزيـع لـلأدوار، مـع حقيقـة أنّ النظـر النسـويّ للأديـان لا يمـر إلا عبـر عدسـة الجنـدر ولا يتعامـل مـع النبـوة وأدلتهـا = سـيبدو التناقـض بيـن الموقفيـن واضحًـا، ومـن الصعـب أن يكـون هنالـك مفرّ بـأن يُوصَـم الديـن بأنـه ذكـوريّ ومتحيـز ضـد المـرأة.

فمشروع الجندر من الصعب عدم النظر إليه بوصفه ليـس مجـرد نظريـة اجتماعيـة، بـل هـو يعمـل كرؤيـة وجودية وكنقطة انطلاق عقدية لتقييم كل شـيء أخلاقيًّـا، فكمـا تؤكـد كريسـتين أوفـرول: «مـا هـي الخصائـص التـي تجعـل مثـل هـذه الحجـج المقدمـة [لصالح الإلحـاد] نسـوية؟ أقترح وجـود أربعـة خصائـص: أولًا، اسـتعمال مفهـوم الجنـس و/أو الجنـدر كمقولـة تحليليـة لتأويـل وتقييـم الادعـاءات الدينيـة. ثانيًـا: الوعـي بالتجـارب المختلفـة للنسـاء. ثالثًـا: معرفـة قهـر النسـاء بواسـطة النسـاء، القهـر الـذي يمكنـه اتخـاذ أشـكال مختلفـة عديـدة ... ورابعًـا، الأمـل فـي، والهدف الأخلاقـي، لإنهـاء كل جوانب القهر المبنـي علـى الجنس/الجنـدر..»(٢٠) وكمـا تذكـر أيضًـا أميمـة أبـو بكـر -إحـدى رواد اتجـاه «النسـوية الإسـلامية»- والتـي عملت علـى مقاربـة الديـن مقاربـة جندريـة في الكتـاب الـذي قامـت بتحريـره «النسـوية والدراسـات الدينيـة»: «ركـزت هـذه الدراسـات إذًا علـى كيفيـة إعـادة تفسـير الظواهـر الدينيـة واسـتنباط المعاييـر ووصفهـا مـن خـلال «عدسـة تحليليـة» تأخـذ مسـألة النـوع (الجنـدر) فـي الاعتبـار».

فبـدءًا مـن فكـرة الإلـه نفسـه، سـنجد أنـه تـم التعامـل معهـا عبـر مفهـوم الجنـدر، فمثـلًا تقـول مـاري دالـي Mary Daly: «إذا كان الإلـه ذكـرًا، فـإن الذكـر هـو الإلـه»(٢١) مشـيرةً إلـى أنّ الإلـه فـي الأديان التوحيدية تم النظر إليه بوصفه ذكـرًا وتمت إضافـة صفـات الذكـور إليـه كالقـوة والعـزة والجـلال، ومعتبـرة أنّ هـذا التوصيـف للإلـه كان الهـدف مـن ورائـه تمكيـن الرجـال ووضعهـم فـي مرتبـة وجوديـة أعلـى مـن النسـاء باعتبارهـم الأشـبه بالإلـه، ونفـس الاعتـراض تثيـره العديـد مـن المجموعـات الإلحاديـة العربيـة «وهـذه الأمـور تـدل علـى تحيز الإسلام ضـد المرأة واحتقاره لها إلـى درجة أنه جعل الإله الـذي خلـق كلا الجنسـين رجـلًا».(٢٢)(٢٣)

انتقـالًا إلـى لغـة الخطـاب الشـرعيّ، والـذي تـم النظـر إليـه بوصفـه خطابًـا ذكوريًّـا يخاطـب الرجـال فقـط ويغـضّ الطـرف عـن النسـاء، فهـو ينـاد {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..} وكأنّ الدين مقصورٌ علـى الرجال، وأنّ عليهم الوصايـة علـى مـن لـم ينادهـم الخطـاب مـن النسـاء. (٢٤) انتهـاءً بالتشـريعات الدينيـة كالقوامـة والحجـاب والميـراث والإجهـاض وغيرهـا مـن القضايـا التـي يتـم إثارتهـا بصـورة متكـررة هـذه الأيـام.

فعبـر اسـتعمال عدسـة الجنـدر والتـي تفهـم كل مسـألة بنـاءً علـى فكـرة المسـاواة، والتـي تتناقـض بصـورة جذريـة مـع الرؤيـة الكونيـة فـي الديـن والتـي تؤكـد علـى العبوديـة والتسـليم لله سـبحانه وتعالـى وحكمتـه وعدلـه وأفضليـة شـرعه علـى كل أنظمـة الأفـكار والتشـريع البشـرية = سـيكون الديـن بـلا شـك ذكوريًّا، وهـو مـا يسـاوي غيـر أخلاقـيّ وظالـم للمـرأة.

ويتجلّـى هـذا الموقـف فـي الكثيـر جـدًّا مـن كتابـات النسـويات مـن مختلـف الموجـات النسـوية، فنجـد الأم الروحيـة لمفهـوم الجنـدر سـيمون دي بوفـوار تؤكـد: «يتمتَّـعُ الرجـل بالمميّـزات العظيمـة وذلـك لأنـه يملـك إلهًـا يؤيّـد الشـفرة التـي يكتبهـا؛ وبمـا أنّ الرجـل يمـارس السـلطة السـيادية علـى المـرأة، فمـن حُسـن الحـظ أنّ هـذه السـلطة قـد مُنِحـت إليـه مـن قِبَـل الكائـن الأعلـى. عنـد اليهـود والمحمدييـن والمسـيحيين وغيرهـم، إنّ الرجـل هـو سـيد الحـق الإلهـي. لذلـك

---

(20) “Feminism and Athiesm”, Christine Overall, p234, in “The Cambridge Companion to Athiesm”, edited by: Michael Martin

(21) “Beyond God and Father: Toward a Philosophy of Women’s Liberation”, Mary Daly, p19, (Boston: Beacon Press).

(٢٢) «هل الله ذكر»، مجلة أنا أفكر (١٩١١٠).

(٢٣) تعالـى الله عمـا يقولـون علـوًّا كبيـرًا. وهـذا التحليـل لا يعـدو عـن كونـه سـوء قبيـح للفهـم ولـيّ لعنـق الواقـع ليصبـح قابـلًا لأن يتـم تحليلـه بالنظريـة، ففـي التـراث الإسـلامي كمـا يذكـر الدكتـور سـلطان العميـري: «لا يصـحّ أن يوصَـف [الله عـز وجـل] بوصـف الذكـورة ولا الأنوثـة؛ لكـون هـذه الصفـات مـن خصائـص المخلوقـات، والله تعالـى منـزهٌ عنهـا..» (ظاهـرة نقـد الديـن فـي الفكـر الغربـي الحديـث، د. سـلطان بـن عبـد الرحمـن العميـري، المجلـد الثانـي، ص٥٣٨.) إضافـة لأنّ الصفـات التـي وصـف الله عـز وجـلّ بهـا نفسـه تتضمـن الرحمـة والـود بـل والحيـاء، وهـي صفـات تُنسَـب تقليديًّـا للمـرأة. سـبحانه «لَيسَ كَمِثلِهِ شـيءٌ وهـو السَّـمِيعُ البَصِيـر».

(٢٤) يمكن الرجوع في نقد هذا الادعاء إلى:

ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، د. سلطان بن عبد الرحمن العميري، المجلد الثاني، ص٥٣٨.

فإن مخافة الله ستقمع أي دافع نحو التمرد عند الأنثى المضطهدة».(٢٥) وكما تقول النسوية البارزة من الموجة الثانية غلوريا ستاينم: «إنْ فكرتَ مليًّا فستدرك أنّ إيمانك بشيء ما مقابل حياة ما بعد الموت؛ لهو احتيالٌ مذهلٌ، فحتّى الشركات بكل ما تملك من نُظُم المكافآت؛ لا تحاول أن تجعلها بعد الوفاة».(٢٦) كما تقول سوزان شو أستاذة [دراسات] المرأة والجندر والجنسانية: «في ضوء المؤسسات الدينية التقليديّة مثل الكنيسة والمسجد والمعبد؛ فإن النظام الذكوري البطريركي هو الدّين السائد في العالم».(٢٧)(٢٨)

في مقابل هذه الحقيقة التي تكاد تجمع عليها كل النسويات المتبنيات لمفهوم الجندر، فقد كانت هنالك ثلاثة مسارات حاضرة في دراسات الدين من منظور جندري اتبعتها النسويات ورأوها كحل ممكن:

١- ترك الأديان ومحاربتها وإعلان الإلحاد والبقاء على حال اللادينية:

وهو الموقف الأكثر شيوعًا في الأوساط النسوية.

٢- العمل على إعادة بناء الأديان وصورة الإله فيها:

وهذا الاتجاه قد بدأ في الغرب منذ الستينات من القرن العشرين، وتتوّج بنشأة ما يُعرَف بـ «اللاهوت النسويّ» وهو تيار يعمل على إعادة بناء المسيحية من منطلق جندري. «وتمضي روزماري رادفورد روثر [إحدى أهم رائدات ومؤسسات هذا الاتجاه] في شرح تفصيلي لأهداف هذا التيار ومقوماته؛ تهدف باحثات العلوم الدينية النسويات إلى ترشيد وإعادة بناء الرموز الدينية الأساسية عن الله/الخالق وقصة الخلق، والبشرية بنوعيها الذكر والأنثى، والخطيئة، والخلاص والكنيسة...إلخ من أجل إعادة تعريفها من جديد تعريفًا يأخذ في الاعتبار الجنسين وضمهما معًا في منظومة مساوية».(٢٩) وتؤكد كريستين أوفرول أنّ: «العديد من الفلاسفة واللاهوتيين التقدميين -والذين بالنسبة إليهم قضية الإنسانية المتساوية للمرأة [مع الرجل] هي قضية غير قابلة للنزاع- قد تفاعلوا مع النقد النسويّ القويّ للأدوار القهرية للدين مع [فكرة] الإله البطريركي، عبر محاولة إعادة بناء [صورة] الإله».(٣٠)

٣- تأسيس أديان نسوية خاصة:

وفيه النسويات اللواتي انطوين ضمن حالة «الوثنية الجديدة Neo-paganism» وحالة الروحانية خارج الأديان التقليدية والتي تعمل على خلق أديان وآلهة نسوية -إلهة أنثى في الغالب-، فكما تذكر باميلا يونغ: «بعض أشكال الوثنية الجديدة neo-paganism في الغرب قد حاولت موازنة الآلهة والإلهات في الهياكل الأسطورية والشعائرية الخاصة بها. والبعض يتّكلون فقط على تراث وصور الإلهات. وهذا الموقف الأخير في الغالب يقوم على فرضية أن الناس -خاصة النساء- يحتاجون الإلهة لمقاومة تأثير الرؤى الدينية التقليدية البطرياركية».(٣١)

ومع وضع ملاحظة أنّ النسوية نشأت بعد تجاوز الأسئلة المرتبطة بصحة الأديان بعين الاعتبار، يمكن ملاحظة أنّ إحدى الفرضيات التي تشترك فيها مختلف أنماط توظيف مفهوم الجندر في الدراسات الدينية هي فرضية أن الأديان منتجات تاريخية وثقافية.

---

(25) Beauvoir, Simone de, and H. M. Parshley. The Second Sex. South Yarra, Vic., Louis Braille Productions, 1989.

(26) "Gloria Steinem." Freedom From Religion Foundation, ffrf.org/news/day/dayitems/item/14362-gloria-steinem. Accessed 12 Sept. 2017.

(27) Shaw, Susan M. "Is Patriarchy the Religion of the Planet?" The Huffington Post, TheHuffingtonPost.com, 1 Oct. 2015, www.huffingtonpost.com/susan-m-shaw/is-patriarchy-the-religio_b_8228710.html. Accessed 12 Sept. 2017.

(٢٨) نقلًا عن: «التداعيات الخطرة للنسوية الإسلامية»، دانيال حقيقت جو، ترجمة: فرح علي، تحرير: أسامة خالد العمرات. موقع أثارة من علم.
https://atharah.com/the-grave-implications-of-feminist-islam

(٢٩) «النسوية والدراسات الدينية»، تحرير: د. أميمة أبو بكر، ص١٣، ترجمة: د. رندة أبو بكر، سلسلة ترجمات نسوية، مؤسسة المرأة والذاكرة ٢٠١٢م.

(30) "Feminism and Athiesm", Christine Overall, p237, in "The Cambridge Companion to Athiesm", edited by: Michael Martin.

(31) "Religion", Pamela Dickey Young, p512, in: "A Companion to Gender Studies", edited by: Philomena Essed, David Theo Goldberg, and Audrey Kobayashi.

«إن الرموز الدينية قد تم بناؤها اجتماعيًّا وهي تعكس القيم الثقافية للأوقات والأماكن التي بُنِيَت فيها.»(٣٢) وكما تشير كريستين أوفرول: «تاريخيًّا تم إقصاء النساء من التعليم -ما يتضمن التعليم الديني واللاهوتي-؛ ولذلك فإنهنّ لم يكنّ متضمَّنات في تشكيل الأديان وعقائدها».(٣٣)

فإن في الغالب ما تعنيه النسويات بالأديان لا يتضمن بالضرورة فكرة النبوة أو الاعتقاد الحقيقي بوجود إله خالق للكون، ولكنه بشكل أكبر يحيل إلى الجانب الروحاني من الوجود البشري المتضمن داخل تجارب الأفراد، وبذلك يكون الحديث عن «إعادة بناء الأديان» أو «تأسيس أديان خاصة» متعارضًا بشكل كامل مع المعنى المعروف للأديان والنبوة.

وهي إحدى المآزق التي تقع فيها حالة «النسوية الإسلامية» حين تحاول تطبيق مفهوم الجندر في فهم الدين، ليصبح كل حديث أو آية يتعارض مع المساواة المطلقة، أو ينسب صفة معينة للنساء في مقابل الرجال أو العكس = متشكلًا تاريخيًّا أو وافدًا من الأديان السابقة للإسلام، وهو ما يعني في أسوأ الأحوال أن الدين تشكل تاريخيًّا، وفي أفضل الأحوال أنه تشوَّهَ وتم تحريفه مذ لحظته الأولى، فإما التعامل مع الدين بوصفه وحيًا إلهيًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعليهِ تجاوز فكرة المساواة المطلقة المتجذرة في مفهوم الجندر، أو الاتساق في استعمال مفهوم الجندر والإقرار بأن التأكيد تشكل تاريخيّ لا يَصدُق عليه مفهوم الوحي الإلهي النازل من الخالق الحكيم عزّ وجلّ، إضافة للتركيز الشديد على قضية التجربة الدينية الشخصية للمرأة كأساس لبناء المساواة في تأويل الآيات والأحاديث، أي تجاوز النقاش والمناهج الموضوعية للعلوم الشرعية واستبدالها بحالة سائلة نسبية من التجارب البشرية كأساس لفهم القرآن والسنة، وهو ما سيوقعهم في إشكالات كثيرة في التعامل مع النبوة والوحي كحقائق موضوعية نزلت من الله عز وجل للبشر.

والله المستعان.

(32) "Religion", Pamela Dickey Young, p511, in: "A Companion to Gender Studies", edited by: Philomena Essed, David Theo Goldberg, and Audrey Kobayashi.

(33) "Feminism and Athiesm", Christine Overall, p235, in "The Cambridge Companion to Athiesm", edited by: Michael Martin.

